ضيف في الزوية

قصة بقلم صبحي الحوري

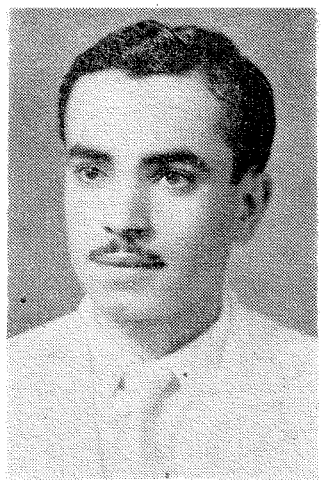

عندما القيت بكل ثقلي على المقعد الخشبي الطويل الصلب لم اكن اصدق انني انتهيت من عذاب استمر اربعة ايام . وعلى الرغم من انني كنت غافلا عما حولي فقد امتدت رجلاي في حركة اوتوماتيكية الى ظهر حقيبتي الكبيرة وكأنهما تحرسانها من هذا الخليط المتنافر من الناس الذي لا يهدأ لحظة والذي يطغى الزعيق على كل افراده ما بين داخل وخارج . وتحسست جيدا الورقة التي اودعتها بحرص جيب سترتي الداخلية وكأنها كنز عزيز يرتبط به مصيري المتأرجح القلق فقد سعيت وراءها باشد مما يسعى كلب جائع تعب وراء فريسته . ولم يكن انتظامي في ذلك الطابور الطويل امام غرفة الزنك الصدئة القديمة اصعب ما في مهمتي بل كان علي ان اجوب شوارع المدينة الكئيبة التي يسودها جو من القلق والتوتر والخوف دون جواز سفري الذي ارفق بالمعاملة حتى يتم صدور التصريح ، فالحمة على حدود العدو ولا بد لزائرها من تصريح يصدر عن أعلى جهة مسؤولة في السلطات العسكرية .وهكذا فقد كان علي ان اكبح جماح فضولي وان احرم نفسي متعة البحلقة هنا وهناك في شوارع ومعالم واشياء وبشر مخافة ان تمتد الى كتفي من الوراء يد خشنة فظة تطالبني بابراز هويتي . كان شبح القضبان والارض العارية يعذبني باستمرار كلما نظرت الى يدي المنتفخة المتورمة فأؤثر ان ارتد الى حجرتي في الفندق الذي اخترته لتستقبلني عينا صاحب الفندق المتوجستان ولانحشر في فراشي حتى صباح اليوم التالي . ولقد جاء هذا الواقع مخيبا لامالي في رؤية المدينة الكبيرة الجميلة ذات المجد الخالد التي طالما هفوت اليها بعين خيالي واحلامي ، ولذا فقد حاولت ان اثور على ذلك الجمود القاتل عندما ارتفع صوت احد الجنود لليوم الثالث على التوالي « لا تصاريح للاردنيين واللبنانيين في هذا اليوم » ، فكان ان اقتادوني الى داخل حجرة الزنك الصدئة القديمة . كان الضابط العجوز لطيفا معي فالظاهر انني قد تفوهت بعبارات مؤثرة اثناء ثورتي . ولقد انفرد وجهه حتى خلت انه سيبتسم عندما قدمت له سيجارة اردنية . وعلى الرغم من ان التصريح كان اثمن هدية يمكن ان تهدىء روعي وانفعالي الا انني وجدت في نفسي الادب الكافي للاستماع اليه . قال انه لاجيء مثلي هو الاخر فقد غادر لواء الاسكندرونة قبل ثلاثة وعشرين عاما على امل ان يعود اليه في اسرع وقت ممكن ولكن ها ان الزمن واليأس يأكلان ايامه وهو يرزح تحت ثقل النجمة الواحدة التي لم تنجح في ان تستضيف ثانية وثالثة.ولقد كذبت يومها على الرجل فحدثته عن طبريا وحماماتها ودفئها وبحيرتها واسماكها وادعيت لنفسي انني زرت المدينة مرات ومرات ، تلك كذبة كان يحلو لي ان اردادها على مسامع كثيرة حتى كدت انا نفسي اناصدقها والواقع انها قصص تسربت الى مسامعي وانا صغير من امي التي اصطحبت شقيقتي المريضة الى هناك . وشددت على يد الرجل مودعا بعد ان وعدني وعدا قاطعا بالحصول على التصريح في اليوم التالي .

ولقد بر الرجل بوعده ، وها انذا استلقي على المقعد الخشبي بعد مشوار ط ويل حملت فيه امتعتي من الفندق الى كراج القنيطرة والى جانبي اللبنانيان اللذان جمعتني بهما تلك المحنة واللذان سريا عنى الى حد كبير طوال الايام الثلاثة الماضية ، بلهجتهما الحبيبة المفرحة وحديثهما عن ضيعتهما « طير حرفا » التي تربض على الحدود هي الاخرى غير بعيدة عن رأس الناقورة . والواقع انني اثقلت عليهما باسئلة كثيرة مرهقة وعويصة عن مناطق الحدود عندهم وعن ابرز ما يميز الحياة هناك محاولا ان استشف صورة المأساة من زاوية جديدة، وان اطبق باسناني على طرف من ذلك اللسان الطويل الذي لا بد يلعق جراحنا في كل مكان . ولقد ادخلت الى قلبي بعض اللذة والاطمئنان حماستهما التي كانت ترتفع من بين ركام من السذاجة والعفوية ، كما ان امكانياتهما المادية الضئيلة اشعرتني بشيء من الوثوق بالعشرين دينارا التي احملها ومكنتني من ان امثل دور القائد في جماعتنا الصغيرة .

كان اليوم يوم خميس وكانت السيارات المغادرة تمتلىء في لحظة بالجنود المجازين العائدين الى عائلاتهم ولذا فقد تعذر علينا ان نستقل احداها ولم نجد بدا من رشوة المسؤول عن حجز تذاكر السفر فالوقت لا يرحم ولم تبق من مدة التصريح الممنوح لنا سوى خمسة ايام . ولقد تكفل علي الرحال زميلنا الاشد حيوية وحركة بذلك بينما جلست انا قلقا مترقبا اعد الدقائق التي اخذت تنقضي ببطء بالغ . وعندما عاد الينا علي يفرك يديه مسرورا بنجاح مهمته اعطاني فرصة للنظر الى ما حولي . كانت الشمس التي مالت عن منتصف السماء غربا قد احتلت المكان الاوفر من باحة الانتظار ، وكان صبية صغار كثيرون يروحون ويجيئون بين الامتعة ويتعلقون باطراف اثواب امهاتهم الجالسات على المقاعد ويصرخون متباكين كلما مر بائع متجول وهن يزجرنهم باصوات لا تريد ان تخرج عن دائرة الاحتشام . واخذت اجول ببصري بين الجالسات بملابسهن السوداء المطرزة التي تنمعن بيئتهن الريفية القريبة من حال البداوة فكان ان استقر بصري عليها . كانت ترضع طفلها وهي لاهية عما حولها وعيناها تتنقلان ما بين الصغير وسقف البناء . ورفعت عنها بصري محاولا ان اعدو لمراقبة الجو من حولي ولكن عيني ما لبثتا ان عادتا الى التحديق في ثديها الصافي البياض الذي كان صغيرا انيقا لا يتناسب مع ضخامة جسمها الممتلىء في غير ما أسراف وقوامها الفارع. وارتفعت عيناي في بطء متأمل الى عنقها الراسخ الابيض الملتف ، واعتدلت في جلستها واخذت هي الاخرى تجوس بعينيها في المكان . كان لها انف دقيق دقيق وفم ملموم تشققت شفتاه تحت وطأة الم طارىء وجبين ساطع ضيق زادت في كبريائه وسطوعه عصبتها السوداء التي سويت في اناقة . كان صدرها يعلو ويهبط في جهد واضح وقدرت انها ما نزلت المدينة الا طلبا للعلاج . واستغرقني النظر اليها فاختفت من مخيلتي صور كثيرة مشوشة ولم يبق في ناظري ورأسي سوى هذا الكيان الشامخ المتألق المنفصل عما عداه من ضوضاء .

عندما تكلمت كان في حديثها ثقة واعتداد يخالطهما شيء من الدلال المعتدل المتحفظ الذي يناى بها عن شمس الحقل الى ظل الخباء . وقدرت من لهجتها ان الكهل الواقف امامها شخص اخر غير زوجها ، والتقت عيني بعينها لحظة فارتعشت ، كانت لها اهداف طويلة وعيون سوداء واسعة في استدارة يتكسر بريقها على صفاء وجهها المشع .

كنت استمتع بشعور غامض مبهم بانني دخلت دائرة خيالها على نحو ما وكنت ارسم لنفسي اوضاعا ومواقع وانا استمتع بطراوة العيش في ظل هذه الواحة الغافية عندما جذبني علي بجماع يده ليسحبني الى داخل السيارة .

طوال الطريق الى القنيطرة لم اتكلم كانت السهول الحمراء السمينة المشققة لطول عطشها وقطعان الماشية التي تأكل اعوادا يابسة رغم قربها من الماء تمر امام ناظري وكأنها شريط سينمائي ، اما ذاكرتي فقد

ظلت متعلقة بها .

في القنيطرة كانت الحجارة السوداء التي تغطي كل مكان وبيوت اللبن الصغيرة والغبار المتصاعد من بيادر البلدة تشيع في النفس جوا من الكآبة لم تنجح اشجار التين الصغيرة المتباعدة في ان تخفف شيئا من وطأته على النفس . ووقفت بنا السيارة في باحة منخفضة محاطة بالاسوار كأنها زريبة تتناثر في جوانبها خياش التبن الضخمة المنفوخة ويتجمع في حفر ارضها ماء اسود آسن . وفي الجلسة الصغيرة التي جمعتنا بعدد من السواقين واهل البلدة كان همي ان القي باكبر عدد ممكن من الاسئلة دون ان اثير الشبهة وان اجمع اكبر قدر ممكن من المعلومات ، فاصداء معركة النقيب ما زالت تتردد ، وكان يهمني بالفعل ان اطلع على مدى تحسس الناس للمأساة ومدى استعدادهم لصد العدوان ، ومرة أخرى وجدتني انطلق في حديثي عن طبريا والبحيرة وشاطئها الغربي واسماكها والطريق القصير الاخر الذي كان بودي ان اسلكه من بانس الى جب جنين الى الناصرة الى طبريا فالحمة لو ان الامر ظل على ما كان عليه قبل سنوات . ولقد كان اندماجي في الحديث وجو المأساة كاملا حتى انني جعلت مسألة استئجار السيارة مسألة ثانوية . كان شرطي الوحيد الذي اشترطته على السائق ان يحدثني عن كل موقع نعبره عند اقترابنا من الحدود وان يشير الى كل مكان يعرف عنه شيئا في الطرف الاخر المقابل . ولقد شعرت انني ظلمت زملائي بالاجرة الباهظة التي وافقت على دفعها ولكن حماسي لكل تلك المناظر الجديدة ورؤيتها من موقع جغرافي ونسي جديد كان اغرى من ان يعترضه عائق .

كانت السيارة على وشك الانطلاق بنا حين وقفت الى جوارنا سيارة كانت قادمة لتوها من دمشق ، وفوجئت بها تنزل من السيارة بقوامها الفارع ووجهها الابيض المشع وشفتيها الملمومتين على الم وورائها الكهل وسرب من الاطفال . وتقدمت الى سيارتنا في وسألت السائق عن وجهة السيارة ، وعندما اخبرها باننا نقصد الحمة سارعت ترجوه ان ينقلهم الى قريتهم الزوية . وتململ السائق في مقعده وادار وجهه نحونا وكأنه يستشيرنا . اما انا فقد كان رد الفعل عندي سريعا حماسيا دهش له صاحباي فقد اندفعت بحركة غريزية الى اقصى طرف المقعد افسح مكانا للقادمين الجدد . ومرة اخرى أسند السائق نحوي واخبرني بان الزوية لا تقع على الطريق الرئيسي مباشرة وانها تبعد عنه بضعة كيلومترات . ووجدتني اقفز مباشرة الى استقلال اريحية زميلاي ونخوتهما وكأن المسألة ليس لها الا حل واحد وحيد . ومرت لحظات كنا خلالها نقوم ونقعد وننحشر حتى اصبحنا جميعا داخل السيارة .

لم اضع على نفسي فرصة استضافتنا لهم على هذا النحو فاستدرت في جلستي اواجههم لابدأ معها ومع رجلها حديثا طويلا عن المنطقة وعن المشاهد التي كنا نمر بها مسرعين . وقد سرني حتى درجة الانتشاء ان شيئا كبيرا من خجلها الذي توهمته قد تبدد فقد انطلقت على سجيتها تحدثني بكل طلاقة ، ولم تترك لرجلها الا فرصة التأمين على جميع اقوالها . ولقد جاء تصرفها على هذا النحو مطابقا للصورة التي رسمتها لنفسي عن المرأة في هذا المحيط القريب جدا من حال البداوة . ومرت لحظات فكت خلالها عقدة لساني فانطلقت معرفا بنفسي وبلدتي الرابضة على جبل من جبال المثلث قريبا من خط الهدنة كاشفا ادق خفايا واسرار الحياة عندنا . كلام ما كنت اتصور ان اقدم على ذكره والبوح به . اما هي فلم تتوان عن مبادلتي حماسا بحماس ، فكشفت النقاب عن اشياء كثيرة من جوانب حياتهم كان اخرها ان اهل قريتها دعوا وزير الاصلاح الزراعي الى المنطقة وانهم اولموا وليمة كانت اقرب الى مهرجان وانها اشرفت بنفسها على اعداد الطعام وشاركت في انجاح الاحتفال ، ولقد شعرت كم كانت فخورة بذلك . وفي هذه الاثناء كانت قد تغلبت على بقايا خجلها مما اعطاني فرصة اكبر للتحديق والتأمل في ذلك البناء المتسق النشوان .

عندما توقفت السيارة في ساحة القرية كانت الشمس ترسل بخيوطها الافقية الواهنة فوق السهول المغطاة بالحجارة السوداء . ولم اصدق بادىء الامر اننا سنفترق بمثل تلك السهولة وانني سأترك لاطلع على جوانب جديدة من المأساة وحدي ، لهفة عاصفة كانت تجتاحني وتشعرني بالحاجة لان استبقيها لنستعرض معا كل المناظر ولنعلق معا على كل المشاهد والاحداث . وعندما نطقت بالعبارة التقليدية تفضلوا خلت ان الدعوة لا بد جادة تتطلب الموافقة الفورية حتى لكأنني تحولت من مريض الى سائح تستهويه الغرابة والمغامرة فقد نسيت ولو الى حين يدي المتورمة ومياه المقلى التي تشوي البدن شيا وان محدثتي امرأة غريبة عرفتها قبل ساعات . لكن الحقيقة كانت اقوى من كل الاختلاجات في اعماقي فقد استدارت السيارة مسرعة لا تلوي على شيء ووجدتني افاوم رغبة جارفة في ان ارفع يدي محييا مودعا .

طوال الطريق ظللت صامتا بينما السيارة تندفع مسرعة وكأنها تسابق الشمس الغاربة تخلصا من غبش المساء تتناهى الي اصوات رفاقي من بعيد بعيد فيما كنت اعبر بخيالي ساحة واسعة لاشق طريقي بصعوبة وسط قطيع كثيف من الحملان الجميلة الشبعانة المرحة لاصعد درجا ضيقا الى علية انتصبت فوق لواوين واسعة الابواب مفتوحة للريح والشمس ، ولاتصدر جلسة عربية مريحة كل ما فيها ينطق بالدفء والحنان وغير بعيد مني كانون النار وجوزة القهوة، ينبعث من اوصالي دفء طبيعي لا تقدر على تحقيقه كل وسائل التدفئة الحديثة المصطنعة. كانت الطريق بين بلعا في المثلث والزوية في الجولان قد اختصرت لينتصب على حوافها جسر عتيق راسخ يختصر برسوخه المسافات ويبدد كل حس بالزمان . واهلت هي وقد تخففت من الكثير من ملابسها لتحدثني حديثا كله حب وحنان . وعند انتهاء السهرة صحبتها في جولة الى الحقول وايدينا متشابكة واشعة القمر تفرش لنا الدرب بالف لون ولون . كانت الارض غير الارض العطشانة المسطحة والاشجار قوية سامقة والحقول خضراء طافحة بالنضارة والنمو وخرير الماء ينبعث من كل جانب . كنا نقف عند كل منعطف ورابية نمتص كل وماة وحركة ونستشرف افاقا بعيدة شفافة وكأن الطبيعة قد اقامت لنا عرسا بهيجا بعيدا عن اعين الرقباء . وبدأنا ننزل منحدرا سحريا صفت احجاره في عناية بالغة وفجأة مالت علي تتقي السقوط واقتربنا حتى لكأننا نتعانق وهنا افقت على لكزة قوية من يد زميلي علي الرحال .

والتفت ، كانت السيارة تنزل منحدرا سحيقا ونظرت الى حيث كانوا ينظرون . كانت الاضواء تتلألأ على الضفة الاخرى من الهوة السحيقة بعيدة عنا الى الوراء . وفوجئت بالسائق يحثني على ان اراقب المشهد الذي فاتني معظمه والذي طالما تقت لرؤيته والححت في السؤال عنه . كانت اطراف البحيرة الشرقية على بعد مئات الامتار فقط ولم يكن الظلام الهاجم ليسمح لي الا بمشاهدة طرف ضئيل من المياه الفافية المتلألئة

والتصقت بنافذة السيارة محدقا وصحت بالسائق ان يتمهل، بل لقد خالجتني رغبة جارفة في ان اغادر السيارة لاغمر نفسي بالماء الذي طالما تحدثت عن سحره وصفائه وكنوزه المغمورة دون ان اراه ، ولكن السيارة كانت تنحدر وتنحدر دون ان يلتفت السائق الى اسئلتي الكثيرة المتلاحقة ولهفتي التي كانت تصل حد الهوس والحمق . لكأنه كان يعاقبني على انشغالي وسهومي طوال الوقت السابق . وحين اعدت الكرة مرة اخرى ملحفا في الرجاء افهمني بادب من نفد صبره ان علينا ان نصل مخفر الحمة قبل السابعة والا منعنا من الدخول وان بامكاني ان اعوض ما فاتني في طريق العودة .

المجنون الاحمق ! ألم يكن يدري انني انتظرت مراقبة المشهد اياما واياما وان التملي منه تبرير لكذبة كبرى ظللت اعيشها سنوات وسنوات ؟ وانني بمشاهدتي كان يمكنني ان احل اشكالا ضخما قائما في حياتي يفصل عالم الوهم عن عالم الواقع .

وبلعت ريقي حنقا ونحن ننحدر وننحدر ومن بعيد كانت الاضواء على الضفة الغربية للبحيرة تخفت وتخفت وخلت انني ارى صورتها تتماوج بين الاضواء المبتعدة ملوحة محذرة هذه المرة لكأنها كانت تدرك انني من جديد اقترب من مكامن الخطر وانني من جديد اعيش جو المأساة . رويدا رويدا بدأت الهوة الفاغرة فاها تبتلعنا وحين وقفت بنا السيارة كان الظلام يلف بسواده كل شيء من حولنا وادركت انني بحاجة الى كل ما اخترنه من بصيرة وجهد كي ارى معالم الطريق من جديد .

عنبتا

صبحي شحروري